الفصل الثاني

الشعب
١٧١٤ ـ ٥٦

كانت انجلتره التى وجدها فولتير أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيدة التجارة ، واذن فسيدة المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكثلكة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لجيب البرلمان المنتفخ . تلك هى انجلتره التى أحرزت قبل ذلك التفرق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وأنجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت تقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سترقب بعد قليل فى قلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . انها انجلتره التى أحبها الفنان هوجارث وشجبها بقوة فى محفوراته ، انجلتره التى وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيها ضوءه كل موسيقار من آل باخ اذ غدا أعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات .. هذه البقعة المباركة .. فى انجلتره هذه (١) » ـ بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ ـ التمهيد للثورة الصناعية
١ ـ المؤيدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلتره فى ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول ابقارا سمانا ، والفلاحين يضجون فى ألعابهم الريفية ، وكبار الملاك فى الريف ينظمون شئون

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا أعفوا من مضايقات هذا الريف ، وملله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلتره سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ ألف سنة . كل قرية ـ بل كل بيت تقريبا ـ وحدة مكتفيـــة بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها ، وتقطع أخشابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانهـــا ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدها وعلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخيط وتدبغ الجلد وترقع الأحذية ، وتصنع أكثر آنيتها وأدواتها وآلاتها . وهكذا وجد الأب والأم والأبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى أمسيات الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تمريض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجعة . وهى تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والطيور . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعاونين والأسرة كائن حى اقتصادى كما أنها كائن حى اجتماعى ، وبهذا توافر لها مبرر قوى وأساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الأبناء على أساليبهم القديمة فى الحقول لقنعوا بما فى بيوتهم من حيوية منوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطلقوا قطعـــانهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، وبأن يصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، وأثر عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سور المـــلاك معظم الأراضى المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، برأسمال أكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلتره فى ١٦٨٨ نحـــو ١٨٠ر٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلتره عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحـد منهم ٢٠٠ر٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحة الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فانه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالمـلاك السـمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حـوله من أرض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلى مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحسـنة . والمزارع يصـبح مستأجرا أو « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلتره عام ١٧١٥ قسم أرض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحى المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، وأحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسوّرى الأراضي أن التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب أنهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الاقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسـعة . فاستصلح حافز الكسب الأراضي البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . وأضيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المسـاحة المزروعـة فى انجلتره وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفيـة واللفت الأصـفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة • ثم جاء بالأغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعـدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية • وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ • واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخصيا بالزراعة ، وانتقل حديث الضـــياع من الصـــيد والكـلاب الى اللفت والسماد (٤) •

وكان جثرو تل محاميا ، أعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وأرباح الزرع ، ولكن صدمه مـا رأى من طرق الفـلاحة المسرفة ، ـ فالمزارعون ينثرون تسعة أو عشرة أرطال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقى اكتظاظا يمنع الزرع من أن يزكو (٥) » • ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاتـه فى فرنســا وايطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج • وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا • ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حـفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال انابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار • ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبذورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش • وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احـــداث ما سمى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضى التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خـــلال القـرن الثامن عشر • ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصـناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من ســكان المـــدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية •

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضيئل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفليان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لابد منه ، ولو وزع الربح الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد ألزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الابرشية . وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، او الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ ـ ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان قرنا قاسيا .

ب ـ الصـــناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهـــد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الاوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » بيوركشير ١٠٠ر٠٠٠ قطعـــة قمـاش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠ر٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، والى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فظل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى الواقع مصانع وليدة ، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليشاركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وانوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطـــرق المحســـنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى ادوات اكثر منها مكنا . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القـــوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضي قـرنا تقريبـــا (١٧٣٠ ــ ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمـله تغيير بطىء كهذا . ولم يكن الانتقاض على الماضي حادا بالدرجة التى أوحت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قديمة قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتى كثيرة كثرة الشـــعراء ، والرأسماليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرأ فى القرنين الاخيرين (١٧٦٠ ــ ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحله المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولمبس ــ هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا اساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبـــول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع • ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل • وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضي الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية • وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترة ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت • وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت ـ أى الشيت ـ الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى • وشجعت التقاليد البيورتانية ـ التى ستدعمها بعد قليل حركة المثوديين ـ فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته •

وأتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة • وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاءل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترة الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر(٩) • واقتضي الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف اكثر فاكثر ، وظهر الطلب على وقود ارخص • ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدّنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية • والواقع أن هذه المشكلة كانت اكبر حافز لتطوير هذه الآلات • على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) •

كانت اهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به • والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتـــج باشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الآن أغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب • وفى ١٦١٢ أشار ســـيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا • وزعـم « دّد » دّدلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوســائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة • وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك ـ أى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة • أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ • وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحـم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى انجلترة وفى ١٧٢٨ أنشيء أول مصنع انجليزى للحديد لتمـرير الحـــديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاخراج الأشكال المطلوبة • وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار • هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية •

ج ـ الاخـــتراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للانظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتـــاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه • مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) • وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الأحيان مصـدرها ، خشـية أن تهددهم بالتعطل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ • وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق • على أن النقل البحـرى كان آخـذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تتهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع • وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة • وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة مذخفضو الأجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة • فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم •

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جـون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هـذا التاريخ بداية للثورة الصناعية • فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النساج باستثناءات صغيرة ـ اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبى النول بيد ، ويلقفه باليد الأخرى فى الجانب المقابل • ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت • فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكولتشستر اتهمه النساجون بانه يحـاول حرمانهم من قوتهم اليومى • ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعـه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضي كل ماله • فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الأهالى هاجـوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل • غير أن امرأة رحبت بالته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى فى النهاية (١٢)»
ووجد كى قبولا أكثر فى فرنسا ، التى تبنت حكومتها اختراعه وكافاته بمعاش • ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله الا عام ١٧٦٠ •

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط باسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها • وكان الغزل الى سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التى تمجد الماضي • فى ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتى، آلة غزل يبدو انها مبنية على اسس اقترحها جون فيات ، وهى مجموعة من البكر تسحب للخارج حبال القطن او الصوف المشدودة لتصبح خيوطا باى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله باقل جهد • وباع بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ، واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن فى ١٧٤٢ ــ وهو الأول فى سلسلة طويلة من مصانع الغزل فى انجلترة القديمة والجديدة •

أما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال وصبر النساء • واقدم الحلول استخدم القوة المائية • ففى مائة قطر كان الدولاب المائى العظيم ، الذى يدور على مهل مع جريان الانهار ، يسير منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافيخ ، والبكر ، والمطارق ، لا بل الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ • وظل المصدر الاهم للطاقة الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر • وقد عاش الى القرن العشرين ، وما التركيبات الهيدروليكية فى زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء قابلة للنقل • ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ، ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا فى بلاد الجنوب الهادئة الريح ، ولكن فى العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية فى ادارة طواحين هواء توجه « قلوعها » الى « عين الريح » بونش فى اسفلها يدار باليد • وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التى لا يركن اليها ، اوجها فى الأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر ، ثم بدات اضمحلالها الرائع •

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مرورا بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالومون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكرستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا ايضا ، اى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الأساسي للطلمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د ـ راس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترة اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع ـ اذا عرفناه بانه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع ـ لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٫٠٠٠ دولاب . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات وايواؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الراسمالى ـ مقدم رأس المال أو مديره ـ ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه • وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع • ولكن نظام الطوائف الحرفيـــة بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هيىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبيـــة المطالب المتزايدة للجيوش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية • وكان الرأسمالى أقـدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة ، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب •

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمـله • فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدّد ساعات كده وظروفه • ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدّل اجوره أو نوعية ناتجـــه • ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية • ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل ــ الذى سيعجب آدم ســـمث كثيرا ــ التـــكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة • وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة • فاذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، واذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) • وكان النساج يتقاضي حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات • أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، واما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) • على أن الأسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) • وكان يضاف الى هـــذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجعة أثناء العمل ، وكان معظم عمـــال المناجم يعطون الفحم مجانا •

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور ، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من الحماقة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهوّن من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع أجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكسبية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه فى الطوارىء أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء بروليتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضي قانون قديم أصدره ادورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم أنفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال ـ لا الطوائف الحرفية ـ هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترة فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلوسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم التدخل "Laissez – Faire"

هـ ـ النقـل والتجـارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت انجلترة تتمتع بميزة ساحلها البحرى وانهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على ابعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخـل ، فاتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، واخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع او الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضي اخـراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل او الثيران ، وكان على المسافرين على الأقدام أن يتحـولوا الى الحقـول او الغـابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبـات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين واوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية.

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل او فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط او مواقع على الطريق Posts فى الرحـلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post – houses فى جميع أرجاء اوربا الغربية. ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد او تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم ان يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشسترفيلد (١٧٤٩) يشكو الحـال « ان رسائلنا على أحسن تقدير تنقـل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضـيع تماما (٢٢) » . وذهب الى ان من « السرعة غير المألوفة » ان يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان اكثـر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان او اربعة ولها سـائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترة ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوقة بدائية على نحو جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياد الحمل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت الى بيت . أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى عرض فى الفترينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والبدال سمى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة. gross ; فالبدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شيء من السكر الى المسامير . وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار ـ اذا سمح الجو ـ عينات من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، وليـن ، وبوسـطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربردج . فى هذه الأسواق ، فى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجـزيرة ليتبادلوا الحديث عن الاسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار . وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكميـة فى النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغـور الانجليزية من ٣١٧ر٠٠٠ طن فى عـام ١٧٠٠ الى ٦٦١ر٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١ر٤٠٥ر٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضـاعفت لفـربول حجمها وارصـفتها كل عشرين سـنة . واقبـلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميـل التى تخلب الألباب . وبلغت

ارباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميها خمسة عشر دوقا أو ايرلا ، واثنتى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية فى انجلترة الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى أن انجلترة استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم أصحاب السفن لفربول ، وساد أصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٫٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه فى وانستد من أشهر مشاهد انجلتره . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم أقطار أوربا ترى املاك الأسرة ـ اى الأملاك الوراثية ـ التى تميزها الألقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى أهم أسباب التمايز . أما فى انجلتره فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الأغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى ابناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (اى حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و ـ المال

كان المصرفيون الأوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التى يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب • واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال فى وقت واحد ، فقد كان فى استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة • وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك فى توسيع الاقتصاد الأوربى • وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبانى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما • ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفى حتى عبر حدود معادية •

وتألفت فى انجلتره شركات محاصة كما حدث فى هولنده وايطاليا وفرنسا • ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا اسهما ، ووعدوا بدفع ارباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست فى لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) فى ١٦٩٨ • وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا فى المضاربة باسهم الشركات ، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون فى أسعار السوق رفعا وخفضا • وقد وصف ديفو فى ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشترى ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بان يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رءوسهم ، ويلمحوا بان هناك أخبارا سيئة من الهند •• وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه • والمتو ترى السوق •• وقد امتلأته بالبائعين ، ولا أحد يشترى ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة فى المائة ، واحينا أكثر • هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه •• فى الشراء ، ولكن فى

متكتم وتحوط ، حتى يشترى ـ بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة فى المائة ـ اسهما بمائة الف جنيه ، باقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا اكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) » .

ولم تكد تفتتح أسواق الاوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى انجلترة ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تأثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى ـ البالغ ٥٢ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ ـ يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه من الفائدة ـ فكرت فى خطة لتحويل ٣١ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الاسبانية فى امريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الاوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بان مرسوم احتكارها يعد بارباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترة ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولها الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ١٢٣ر٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولاثنتين من خليلات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال ان المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بارباح من أموال لن تفى بالغرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بان المشروع سيفشل ، وانه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغى وضع حد ما على الأقل لارتفاع أســـهم الشركة . ولـكن مجلس العموم ابى الاستماع الى تحذيره . وفى ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسى البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفى ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيـه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفى ٢١ أبريل أعلنت ، وهى منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التى أصبحت الآن ملكا للشركة ، أنها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة فى المائة ، واستغلت الحماسة التى أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الأسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها فى ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها فى ٢ يونيو ، وفى يوليو بيع اصـدار جديد بسعر ١٫٠٠٠ جنيه للسهم . وتهافت المجتمـع الراقى كله على الاكتتاب . الأدواق والقساوسة والسياسيون والموسـيقون والشـــعراء ، فاصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا فى شارع كانكمبوا بباريس فى الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم فى الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعـات ، وفى كل ليلة يحسب الرجال والنساء أى ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتروا فى تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الأسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصـدرتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشييد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحـــركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من أسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى ألف اكتتاب كل منها بجنيهن قبل ان ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصـــغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجذوب. وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمـان بذلك - وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة. وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضييقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بان مشروع لو أو « فقاعة المسسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جـون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأســـهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيها ، ثم الى ١٣٥ جنيها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وأفلست المصارف التى كانت قد اقرضت المال بضمان شهادات اســـهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع ارجـــاء انجلتره بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشـــعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمـــان للانعقاد . وفر امين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من الســـجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلتره . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤ر٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض اعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاط المديرون المذنبون فى زكيبة ويلقوا احياء فى التيمـز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للمبـــارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد • ودعى المديرون ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس • فحكم على جون ايزلابى ، وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين — منهم ادورد جبون ، جد المورخ — فلم يتزك لهم سوى عشرة فى المائة من ثروتهم • ولوحظ أن السـير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجـلا « ذا مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) •

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع مصرف انجلتره وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الأسهم الخاسرة • وقد وجد فى شركة بحـر الجنـوب من الاحتياطيات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى وقت مبكر • وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنهـا كانت تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطـة حتى عام ١٨٥٣ •

٢ — مظاهر الحياة فى لندن

يقدر الاحصائيون الأجرياء سكان أوربا بنحو ١٠٠ مليون نسمة فى ١٦٥٠ ، و١٤٠ فى ١٧٥٠ • وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سـكان فرنسا بعشرين مليونا ، والمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا العظمى وايرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيـة أوربا ، والسـويد ، والدنمرك (مضافا اليهـا النرويج) والاقاليـم المتحـدة ، بثلاثة ملايين (٣٥) • وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى أوربا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على « اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسـانى » (٣٦) • ولكن علينا ألا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط • واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العـامة والعـلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلتره وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا اربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غذت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥ر٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الآن أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت »(٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥ر٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امسـتردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة اضـعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى اكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث أكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجـارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط ان تبحر مصـعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغـلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيأ لنقل البضائع من السـفينة الى الساحل او الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شـاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطىء النهر أنيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحللات ملبسا وخلقا ، القذرات مظهرا ولفظا ، الساكنات الأكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . اما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيـه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غـدوا ورواحـا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور او غيرها من البلاد ـ وظـل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع انها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضأ الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر الف مصباح زيتى فى انحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية وتصرف المطر . ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج باصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقعقع حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون — وكثير منهم نساء — يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنو الشوارع يصيحون بالأغانى الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمّل من الناس فى صمت سوى النشالين والومسات .

وبدأ تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان اكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . واخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بان يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . اما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر فى الحديقة او الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام الا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيطهرها منظفو المداخن ، الذين يتسلقونها بضغط كيعانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب او بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسي لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حيين من أحياء لندن ـ هما وابنج ولايمهاوس ـ كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعثا فى الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال او قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها ايضا كانت بؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا انوفهم . والفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رءوسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . اما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيثون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقترفون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالتكم (٤٢) » . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطر الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئا أكثر كثيرا من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن الف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول وريناج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والأحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادى ، ودكاكين الحرفيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويج فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكسبية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والأوبرا - عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠ر٠٠٠ نفس .

٣ - المدارس

كانت الحياة فى انجلتره كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الاطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة المدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للاحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن اهمال المولدات والامهات .

فاذا كان الأبوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨ر٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . اما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . واما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى »(٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادىء القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوضيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ايتون ، ووستمنستر ، وونشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى ـ حيث يستطيع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفاخرون بها فى المستقبل . واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة ـ من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين ـ هؤلاء انشاوا اكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة ـ وهو تعليم أنسب لأبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون الى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون servritors أو sizars) مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والافكار . وأبدت كمبردج استعدادا اكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشسترفيلد بانها « غارقة فى أحلك الظلمات » . أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة ستيوارت الساقطة ، ولم تسمح لملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم سمث ، الذى كان يطلب العلم بأكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها الا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها لانهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة . وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

اما البنات فكن يتلقين تعليما اوليا فى مدارس القرية أو المدارس الخيرية ـ فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الابرة ، والغزل ، وقليلا من الحساب ، وكثيرا من الدين . وتلقى بعضهن التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدي مارى « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ، والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم ... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بان الرجال كانوا يبقون النساء فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . واذا كان لنا أن نحكم من دخول محظيات الملك ، فان النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ ـ الأخـــلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا فى ذلك العهد مما هى اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حـد لم يكد يعرف ثانية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب أجنبى عدد المومسات بخمسين ألف فى لندن ، يوجدن فى حانات المدينة ، وفى الفنـــادق الصغيرة على الطرق ، وفى حدائق المدينة ، وفى المراقص العـامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن فى شارع اكستر وحى ســـتراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمترددين من الزبائن . وفى « دروری لين » (شارع المسارح بلندن) ـ كما تغنى الشاعر جـــون جـاى فى تمثيليته « تريفيا » : هى التى تمشي فى الليل بخطى وئيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنظيف ، وسيماء المومس ... وباصوات التمـــلق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا امسكت احداهن وهى تتحرش برجل ، زج بها فى السجن وضربت بالسوط ووضعت فى المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » فى عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت امس الام نيدهام فى المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهـــور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشـهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم او يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، او يخرجهن صاحبهن بكفـالة ، واحسّ بعض حفظة القانون ـ ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » سـابقات لهم ـ بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجـال .

وأغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرذيلة علانيـة ، ولكنهـم احتقروا الفضيلة سرا .. وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذى عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية .

وألف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهـم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبأ القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمـة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليـو روت الجريدة أدانة « روبرت هـويل ويورك هورنر بفتحهمـا بيـوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرذيلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى ادينت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون ... حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لنـدن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الأقل فى روايات رتشردسن وفيـلدنج ، ولكن معظـم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقـة والديهـم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترة ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرين قانونا اكثـر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير او العليات أو غير ذلك من الاماكن فى شـارع فليت او على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة انه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحبون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر أصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر أى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس انجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترة (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثالا فى ذلك — والناس على دين ملوكهم . ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجريف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاى » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسأل زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ .. كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجل آخر (٥٥) » . على أنه يمكن القول عموما بأن أخلاق النساء كانت فى انجلترة خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال — صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقران فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمر وجوههن خفرا مغريا ، وان يغشي عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده • ولقد ارتضت هذه النظرة حتى المليدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى ان الله والطبيعة قد ألقيا بنا فى مرتبة أحط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحماقتها أن ينكرا ذلك اذما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » •

وكانت فترة حكم البيورتان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث • وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء فى انجلتره قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » •

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل • فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى • وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى • وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، وندر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه" الغش • ولم يكن من غير المألوف للمتبطل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نشسترفيلد يقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده • وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث • وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجالا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعبأون بانذار ينبئهم بأن المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة★ • وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا •

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ • وكانت تذاكر اليانصيب تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتبة بسرقة أرباب عملهم ، طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) •

ولعل السكر كان أكثر انتشارا من القمار • وكانت الجعة بنوعيها (البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى • وكان الرجل اللندنى يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ، باعتبارها أسلم وألطف مذاقا من الماء • وخلق المناخ الرطب طلبا على الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ، وكان النبيذ دواء مفضلا • وانتشرت الحانات ومخازن الخمور فى كل مكان ، وكان ١ر٣٥٠ بيتا من بين ٧ر٠٦٦ فى ابرشية هوبورن تبيع الخمر • وأغضي ملاك الأراضي ـ والبرلمان اذن ـ عن تجارة الوسكى ، لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض المنزرعة فى انجلترة تقريبا يزرع شعيرا • واخذ الوسكى يحل عند علية القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو وأوبورتو ، وادخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور القوية • وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب • فقد روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة مخمورا • وكان بولنبروك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ، أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد النية على الا يراه مخمورا ابن له صاح (٦٠) •

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن • فقد زادت الخمور المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧ر٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى ٥ر٣٩٤ر٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل ان الأطباء انذروا الحكومة بان شرب الجن قد زاد معدل الوفيات بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر • وعلق باعة الجن بالتجزئة لافتات تعهدوا فيها لزبائنهم بان يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة •

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب . ففرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسما على الجن قدره عشرون شلنا للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيها فى العام نظير الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة . وأفضي الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والاتجار به سرا . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفا ، وعدد الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة . فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين جنيها ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واغتبط الشعب وراح يشرب ما شاء . وفى ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للالغاء أمام القضاء) الى تحسين خفيف (٦١) . وأنار الفيلسوف باركلى الموقف بتنديده بالطبقات العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيىء ، وبانذاره اياهم بأن « أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعا (٦٢) » .

كذلك كان المستوى الخلقى منحطا فى ميدان المال والأعمال ، فجنى بعضهم أموالا طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ، ومن خلط الخبز بالشب والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة السن بالكيماويات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات للحد من هذه الاعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق « كل انسان .. فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لاكراه الرجال على الخدمات العسكرية . فلما اخفقت مختلف المرغبات المالية فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعدا) « كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل اسكار الضحية ، اذ كان فى الامكان وهو على هذه الحال ان يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بأن تطأ أقدامهم البرّ ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى .. دون أى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) ». ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بأن يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن .. فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعلا الباقين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدهم اعتدادا بانفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزنوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين . وبمقتضي معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت أسبانيا عقد « الأزينتو »، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٨٠٠ عبد ، من فرنسا الى انجلترة . ومن بين ٧٤٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٠٠٠ ، والهولنديون ٤٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٠٠٠ ـ وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على أقل تقدير ، حملوا أكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزنوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الآبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة .. للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاء مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ ٠

كانت الأخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجـــارية المتحجرة ٠ فلم يكد عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشترى كالسلع سواء بسواء ٠ وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيـــل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » ٠ وأرسلت الدوائر الانتخابيـــة الفاســـدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين يعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال ٠ وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافىء لسلطانهم الاقتصـــادى ، يشترون الترشيحات أو المرشحين للبرلمـــان بنحـــو ١ر٥٠٠ جنيـــه للمرشح (٧٢) ٠ ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسي العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العســـير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيـــا أن تنهض من فســـاد ذلك العصر ـ حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهـــة حكومتها ٠

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمـــة يتخـــلل انحطاط الاخلاق والسياسة ٠ فهناك ملاجىء ـ وان كانت سيئة الادارة ـ للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيهـــا آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيهم ؛ وهنـــاك جمعيات ـ تسمى « أندية الصندوق » ـ للمعـــونة المتبـــادلة فى أيام العسرة ٠ وضربت انجلتره مثلا رائعا ـ هو الأول فى التاريخ الحديث ـ للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حليفتها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتـــح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعـــة وخمســـون مســـتشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحـــد

(١٧٠٠ ــ ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة . وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلىء البدن ، أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الاطفال الذين يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم أب يطلق عليهم ، واقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس بانشاء مستشفى للقضطاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنه « المسيا » التى عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلات موسيقية غلت عشرة آلاف جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة فسيحة من المبانى والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ ــ الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترة فى القرن الثامن عشر سلالة صلبة تمرست بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صعب عسير الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريفين اقتتلا بغير سلاح حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى اصيب كلاهما بجراح مميتة ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مشخن بالجراح أمام الضابط نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بانه جلد ٢٦ر٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ، ثم جلد أربعة آلاف اخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وافاق منها وهو مبتهج ، وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علناً مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك أن قانونا الغى فى ١٧٩٠ كان يقضي على المراة التى تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) . أما الرجـــال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخـــرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا . وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت . على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم باعدامه ، واذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته .

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمينعلى مناظـــر الشـــنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبى الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغانى الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكبث فى « أوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات . فجاك شـــبرد ، و « روب روى » (وهـــو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيربن ، وجوناثان وايلد ـ هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قربها كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالربح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . أما تيربن فوزع النقود على المشيعين ليسـيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيربن الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مســـتر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيـال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليلات ويعيش فى ترف قراية خمسـة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبث بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مئـات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن أكثرها فى « حقل الاربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر ان كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضي عنها بحجة أنها تشجع على التأدب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبـارز الا فى الاصابات المميتة ، واذا استطاع الخصم الحى أن يثبت أنه اتبع قواعـد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى اكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهـم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والأوبرات ، وهناك يلتقون باشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسي (ان جاز لنـــا أن نســـميه كذلك) لأكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هـــذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم عـــلى رفعه ، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصـــوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١ر٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢ر٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتـــور جونســـن فى رجل برح الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على راى كوك الذى ذهب الى أن « حكمـــة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعـــله كان يثنى على « الهابياس كوربس » ، ومحاكمــة المتهمــين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالأمر الهين حقا ان يحرم اعتقال أى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظـــرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام ، وأن من حقه أن يقول ما يشاء ، الا أن يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترة كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستانف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاه يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصرت على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، او تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يراسها قاضي القضـــاة . أما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد أعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكمت دوقـــة كنجـــزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدينت بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، اطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحـاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن أشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بان يوكل محاميا اذا كان ميسور الحـــال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه • فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفـــع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ؛ وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم • أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقـوبات من أقسي ما عرف فى تاريخ القضاء •

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدع الأنوف أو يصلم الآذان • ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديدو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى • فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عـربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) • وكان السجين الذى يرفض الأجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهـــره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحـــديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ •

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمـــان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت • ففى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ • فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وحرق الممتلكات عمدا ، وهتك العـــرض ، واللواط ، والقرصـــنة ، والتهريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من أربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتهـــا ، واطلاق النـــار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشـــتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الأرانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات ـ هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى ايام جورج الاول والثانى والثالث • وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية • وربما كانت الى حد ما النتيجة ـ والسبب ـ لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليـــوم من عادات التزام القانون • وخفف من صرامة القانون رفض القضاة أو المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، أو تحـــديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا بأقل من المبلغ الذى يجعـــل السرقة جناية كبرى • وفى وقت الحرب قد يصدر عفـــو عن المذنبين شريطة ان ينخرطوا فى الجيش أو البحرية •

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، او المشهرة ، أو الجلد ، أو الأشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات • وقضي قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهـــم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » وأسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهـاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حينا • وقدر أحد مؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحنته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) • ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية •

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لأن السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها • فقد كان السجين الجديد يكبـــل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس • أما فراشه فمن القش • واما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج • واذا استثنينا سجن نيوجيت ، وجدنا انه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون • فكانت الاوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «حمى السجن» ـ وهى فى الغالب التيفوس أو الجدرى • وذهب جونسن الى ان ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » • وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على ان ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحـــة الخبيثة · وفى مايو ١٧٥٠ جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى « الاولد بيلى » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى · وبلغ من خبث الحمى التى افشوها أن اربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصـــغار الموظفين اربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بان يغسـل جميـــع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وان توضع اعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) ·

وكان الرجل الذى يقاضي بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه او لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين او حتى يسحب دائنه الدعوى · وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفـــع اربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن امام المدين سبيل الا مقاضاته ـ وهذا يكلفه مالا · على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام افضل ، وبحريات ارحب ، وبالائتناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين · اما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضآلة جرايته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام · وقد قدر صموئيل جونسن أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين الف مفلس يســـجنون فى الســـنة فى المتوســـط ، يموتون من الحرمان (٨٣) · وهكذا لم تجد انجلتره وسيلة اكثر رفقا لحماية طبقـــة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس ·

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات · ولاحظ جونسن ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تســـوية السرقة بالقتل ··· معناها التحريض على اقتراف جريمة اكبر منعا لاكتشـــاف جريمة أحقر (٨٤) » · وظهرت اقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث · وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس اوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الانبل لجون بول · ففى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلتره انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد أقنع مجلس العموم بتعيين لجنة ـ عين على رأسها ـ للتحقيق فى أحوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلتره لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون أن ينتظر مجىء جون هوارد والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوجلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلتره . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلتره والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . وأصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بوب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوجلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ ـ آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة أو فى بل مل ـ كما كانوا أيام اليزابيث او عودة الملكية ـ هم الجنس الأفخم هنداما . يرتدون ـ فى غير العمل أو البيت ـ قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، او يغطون رءوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بازرار قصد بها ان تبهر الناظر اكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب الفاخر تعلن عن ثراء لابسها او طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة ـ الصفراء او البرتقالية أو القرمزية او القرنفلية أو الزرقاء ـ وتدلت منها دلاية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها باهدابه تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم وبثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضي الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفا . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما أحتوت سيفا . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضي الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء ازياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمى « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلانا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكن اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خاطفا عن كعوب متلألئة وأقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع أحفز لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضي حمايتها من أن تحرقها الثريات . وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المراة العصرية ، من قبعتهـــا الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريرى المرصع بالاحجـــار الكريمة ، تلبس لتطيح باى تردد من جانب الذكور المحدقين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرح على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء ـ أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن او طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و ارامل ، اللاتى يخدعن او يغوين او يوقعن فى الزواج ـ ابتداء من هذا القانون وبعده ـ اى ذكر من رعايا صـاحب الجلالة بالعطور او الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الاطواق أو الاحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضي القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهن باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغـــلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضي على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميـــلاد الملكة كارولين ، التى لبست عنـــد تتويجها ثوبا تكلف ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ـ أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه ان يخلع كل ملبس عسـير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه اى شيء أو اقل القليل من الثيـــاب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لان عددها خفضـــه قانـون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باعتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل اسرة ؛ ولكن الاغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقـــة وبالمشاعل الزيتيـــة . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرابزينات المتينة ، والمدفآت من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشي بالشعر ، وتنجد بالجلد . اما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تتشابك فيه النقوش ويتلألأ بالتغشية بالذهب . وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحدّ ، وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث فى البيوت الانجليزية .

وكانت البيوت تدفأ بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو حرق الخشب فى مدفآت واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان . وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهددها دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦ يقول :

« لا يمضي أسبوع الا والبيوت المعتنى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح . وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة . وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة . والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدءون عندها الشراب والتدخين وشرب الانخاب وقص الحكايات . وكان الغداء وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ؛ والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختام لمنجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بامان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الأساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من اتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندر ان مضى هيوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق أدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وفق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك نسناسا او اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربى الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترة من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية — لا سيما فرساى — ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة او نصف القطرية أو الدائرية ، ويوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسياجات المقلمة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج تصمم على هذا النحو ، ونستطيع أن نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الأوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما أديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الاقل جزءا من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التاثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين اكثر من أديسون المحتشم وبوب المتانق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباص كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم . وكان تشارلز بردجمان قد بدأها على تصميم نظامى ، فأعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فأصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلتره وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن أو الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة ـ بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايبر معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون ـ الى عام ١٧٤٣ ـ بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى أنها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول . وكان من الملاهى التى أعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ ـ ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت احب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضـــها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن ان يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفـــلات التنكرية ، ويجلسوا تحت أغصان مضاءة بالمصابيح ، او يرشفوا الشاى ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العـــابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويســتمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رســـمية ، أو يلتمســـوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون ان يرقوا بانفسهم الى موسيقى اسمى فى وسط قوم من طبقة اوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينـــلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان ابوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفـــال من الرقص والأكل على الجليـــد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . واخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرء

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشـــاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

اما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النسـاء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حيـــاة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وســائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا اساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوقة) ذكرى سوقهم ببذاءتهم التى لا مثيل لهـا . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النســاء بقصصهم وســبابهم وانخابهم . ولم تكن السيدات انفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحة .

اما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة اكثر تهذيبـــا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنـــا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقصاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهـــم ، ويترعـــون خمرهم ، ويدخنون بيباتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضـحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الأخلاقيين امثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة اخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبان يخفف حتى يصل الى مجرد الابتســامة (٩٤) . اما تعاطى النشوق او السعوط ، الذى ورد ذكره اول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم ان للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحـــدثه يطهـر المسالك الانفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمـول ، ويهدىء الاعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجـــلا كان او امراة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقـــة

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينـــا ، ورسام المنمنمات ، ارق ما جاد به فنهم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وادارتها عـلى زبائنها ، ووفرت الأقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هـذه الفترة الى أندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمناى عن عيون الرقباء . وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الأندية مماثلا لما كان عليه عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو ان الماسون (البنائين الأحرار) بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » ـ نظم بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الأندية الشرب والقمار والدس السـياسي ، ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث . أما النصف الآخر من هذا الفن فكان مفقودا ، لأن الأندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد الأدب الأرفع والفكاهة الارق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما هناك . فلقد كانت انجلتره بلد الرجال ، اما النساء فلم يكن لهن فى حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلمـــا حاولت الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كانها مخلوق غريب الأطوار لا يعرف أين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا ان يستخدمن مهاراتهن فى الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط او فى بيوتهن. وكانت نهاية الأسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم ان ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت ان يغامر بالمرور وسط الأتباع ، والسقاة ، والخـــدم ، والقهرمانات ، والبـــوابين ، والخادمات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين عند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيـل خارجا فى عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمـــردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر أفضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادمات حلى سيداتهن أو ملابسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه الميـاه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للألعاب، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشسترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحـــر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهـــر منتجعـــات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صـــيادى الســـمك المتواضعة .

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وســـط أرقى البريطانيين من ذوى الأسقام ، يشرب الرواد ـ ويســتحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من أتخمـــوا بالغـــذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضـــخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . وأعاد جون وود وابنه بنـــاء المدينـــة بالطـــراز الكلاسيكى كما سنرى . وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر الســـيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات ـ فى باث ـ عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بأن يلبسوا الأحذية المكشـــوفة بدلا من الطويلة . وكان هو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياء ، ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شـــان الطـــرق والمبانى ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . وأخيرا وفد على باث جورج الثانى ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينـا بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن ايرل تشسترفيلد الذى كان يعشق المدينة كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البـلاطات بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع أنك ستلتقى فيها بارتباطات دون صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونبالة دون فضيلة ، ومظاهر تنقـذ وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة باخلاق سـيئة ، وكل الرذائل والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ ـ تشسترفيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرهف الحس . فقد تمثلت فيه خصائص ارستقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا . ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات طبقته ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرهف مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب ستانهوب ، ايرل تشسترفيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة جورج سافيل ، مركيز هاليفاكس ، المساير الماكـر للعهـود الملكيـة السابقة . ماتت امه فى طفولته ، واهمـله ابوه ، فكفلتـه مركيزة هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معـلم خاص ، فاصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجهما جزءا من عقله . وانفق سنة فى كمبردج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى لاهاى قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عينات من النساء تجربة

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيى فى الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالنى الناس واحدا منهم ، وقد حيانى العديدون منهم بأسمى تحيـــة يمكن ـ فى اعتقادهم ـ أن يحيوا بها انسانا ، وهى : « سيدى ، انك على شاكلتنا تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، عالى الصـــوت ، آمر ناه ، أغنى وأرقص أثناء سيرى ، وأهم من هذا كله أننى انفق مبلغا باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلتره عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى اصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهوب ، الوزير الأثير لدى جورج الأول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ، فظل أحد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الأحرار فى مجلس العموم. فلما أصبح ايرل تشسترفيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيمـــا بعد انه « مجلس ذوى الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاى سفيرا (١٧٢٨) قام بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا اكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خليلة تدعى الآنسة بوشيه ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الأول غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتيـــه بمهر ملكى ، ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبيذ . وقد عاون على هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافـح ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما قفل الى انجلتره واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد ابهجت المقالات التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصـحيفة جـــديدة تدعى « انجلتره القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين الف جنيه. وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الأحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاى ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلتره فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ارلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضاها فى ارلندة انجح سنى حياته . فقد انشا المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلتره من اسكتلنده ، وتوقعت انجلتره ثورة فى ارلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشسترفيلد .

ورد الى انجلتره وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرقة واللباقة اقترف غلطة مدمرة . ذلك أنه تودد الى خليلة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفأ كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، واصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلط عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجانبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، أن أجعلك اكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط تعليم فليب ، لا ليجعله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

» فى خطابى الأخير كتبت لك عن ادب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الأنيق من النـــوع الانسانى . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينـه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تأدب مقيّد أو مزعج دائمـا .. فالرجـل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص عـلى ألا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعـة عشرة أرســله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحـياة أن أراد ان ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنـون الأدب عن طـــريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل ـ الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون ـ من الكتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم ... فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتيوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » .

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووســائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هـــذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حـذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موســيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوربية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينهـــا ودساتيرها ، ماليأتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروبير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الأقل ، ان أنت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسيء الظن بأى سياسي يتظاهر بغير هذا • ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم • « ان أهواءنا هى خليلاتنا ، أما العقل فهو الحليلة على أحسن تقدير ، "يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما "يعبأ به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى أحكم الحكماء وأقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك أرهف وأحوط • وأدرس أنساب اهم الأسر ، لأن البشر أكثر افتخارا بأنسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) • وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتأثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن" أزواجهم •

أما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز • فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والذضج • واكتفى بالاصرار على أن تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن يأثمن معه • وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء • فعليه ألا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« أكثر النساء فضيلة لن يسوءها ان يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون باسلوب مؤدب لطيف • فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق أنك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك •• فاذا لم تلق منها اذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة • وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، ان فى الامكان غزوه (١٠٦) » •

ثم أفضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفضي اليك ببعض الأسرار التى سيفيدك جدا ان تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على اخفائها وعلى ألا تبدو

ملمًا بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا أطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فمـــا عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة .. والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلاطفهن ، ويتملقهن .. ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الأمور ولا يأتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بأنه يفعل الاثنين، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) .. وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراهة ، ويقبلن أقـــله فى شـــكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يتلمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمـــال بغير الرشـــاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القـــدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح أنهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضفين عليهـــا بريقا (١٠٨) » . وحذر الأيرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحمق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمـــة أبدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهـــذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما ان نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة . واذ كان الايرل أرستقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم أعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع أن تحسب ، وأنا واثق انك لا تحسب ، انك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حباك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضي القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيان دون موجب باى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . واقول لك عن نفسي اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتاثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم أصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحة من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن او علم خاص عظيم القدر . اما عن نفسي فقد الفت ان ارانى وانا جالس الى (الكاتب) اديسون او (الشاعر) بوب فى صحبة أشخاص يعلون عنى علو جميع ملوك اوربا وامرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ ، فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق بحيث يخفى حقيقة دون أن يكـذب » ، وأن يبـــدو صريحا وهـــو متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ... وان شئت أن تقنع غيرك فليبدّ عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك كما تودع ساعتك جيبا خاصـــا فلا تبرزه .. لمجـــرد الاعـــلان عـــن نفسك (١١٤) . وهم من هـذا كله ، احـــذر الحديث عن نفســـك ما استطعت (١١٥) .

« وأمسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب الثقافة والحكمة ، ولو ذممته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك أن تقرأ تواريخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الأباحية التى تهاجـم الأديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاســـفة . وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ، لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك اننا حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه، فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بانه ضمان اضافى على الأقـــل للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركـون الى ضـــمانين خيرا من ضمان واحد . لذلك فاينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول القوية » المزعومة هذه ، أو فى صـحبة اباحيين عديمى التروى ممـن يسخرون بالدين كله اعلانا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدعْ كلمة أو نظرة تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا فلتفصح رزانتك الصامتة عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين أول مراحل الثورة الاجتماعية ، « أتنبأ أنه قبل أن ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان أحوال فرنسا .. .. تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر ... والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الأعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . ورأوه يقامر مقامرة المستهترين أو الحمقى ، وعرفوا انه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بانها تغرس فى النفس « اخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى اخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتادب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهيىء ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير أن الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلى الماضية (وهو حق بكل تاكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) » . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتن عن الفوضي الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فان نتائج تلك الرذيلة انما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة(١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، واذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادىء الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما امتدح سياسيٌ زمانه، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد آثر الألفاظ الانجلو ـ سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت ـ بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأى رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أرطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التى تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتالق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى ساحبك حبا جما ما دمت تستاهله ، ولكن لن أحبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشسترفيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠).

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على أرجلى الثلاث ، ولكن يعزينى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وساختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بان « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بان الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) أجلب للذة من الآذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكنا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وانها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى.